رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص. ب ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH . LIBAN B. P. 4123
Tél . 32832

العدد السابع
تموز (يوليه) ١٩٥٦
السنة الرابعة

No. 7. Juillet 1956
4 ème Année

القلق

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

«اليوم فتّحت عيني ... حرية ، حرية ، حرية ...»

فتح عينيه ، واللحن يملأ رأسه . لكأنه كان طوال الليل مؤرقاً به . لقد حلم احلاماً كثيرة لايكاد الآن يذكرها ، ولكن يخيل اليه انها كانت تؤلف في مجموعها نغماً كبيراً ، وأن ذلك اللحن كان يفصل بين مقاطعه ، كأنه اللازمة .

والتفت الى زوجته ، فرآها قد فتحت عينيها هي ايضاً . وابتسم . إن هذا يوشك أن يكون الآن قانوناً لايخطئ : انهما يستيقظان في لحظة واحدة . كأن هناك اصابع خفية تتسلل في الصباح الى عينيهما ، فتفتحهما ، وتختفي .

وفركت عينيها ، ثم نظرت اليه تسائله باهتمام :

— اتذكر لحن أغنية عبد الوهاب التي سمعناها قبل أن ننام ؟

ثم أضافت ، من غير أن تنتظر جوابه :

— لاادري ، يخيل إلي أني سمعتك تدمدم به وانت نائم ..

وإذن ، فقد خرجت الى شفتيه ايضاً ، تلك الكلمات الملحّنة التي كانت تملأ رأسه طوال الليل ؟

وقبّل زوجته قبلة الصباح ، ثم نفض عنه الغطاء ، ونهض الى النافذة يستنشق الهواء النقي .

وحين نظر الى الافق ذلك الصباح ، عجب ان تكون السماء على مثل ذلك الصفاء وتلك الشفافية .

وتسلل اللحن مرة اخرى ، أغنيةً عذبة شعر انها تملأ نفسه جذلا وإقبالا .

ولكن سرعان ما شُدّ بصره الى الطريق ، تحته . وسرعان ما ذكر أنه هابط اليه عما قليل ، منطلق الى عمله انطلاق هؤلاء الناس ، منفق يومه في ما اعتاد ان ينفقه فيه .

وظل مشدود النظر إلى الطريق لحظات . وشعر بأن اللحن يختلط فجأة في رأسه ، فتضطرب حركاته وتفقد أنغامه إيقاعها .

والتاثت كلمات الأغنية ، ثم أخذت تنهار وتتساقط واحدة واحدة ، كأوراق الخريف ، حتى لم تبق منها إلا كلمة صغيرة صغيرة ، صغيرة ، كأنها ورقة مخضوضرة ما تزال معلقة بغصن في شجرة كبيرة .

كلمة صغيرة مزقت صدره ، وأدمت حلقه ، ولجلجت لسانه : حرية ، حرية ، حرية . أين تراها تكون هذه الحرية ؟ أين هي في يومه : في بيته ، في عمله ، في معنى حياته ؟

وأتته زوجته بفنجان القهوة ، فجلس يحتسيه . إنه يود لو يبقى فترة أخرى في سريره يحلم ويتأمل ويفكر ، يحدّث زوجته أي حديث . فهو يأنس بأن ينفض إليها ذات نفسه ، من غير أن ينتظر منها شيئاً . إنه يشعر بأن بعض الغيوم تنقشع من سمائه إذ يحدثها عن المستقبل ، هذا الذي يحبه ويخشاه ، يحبه لأنه يخشاه . هذا المستقبل الذي ما يفتأ يلاحقه ، وهو لايدري متى يحين ، لأنه لا يعرف حلماً فيه قد تحقق .

وقالت زوجته كلمات لم يعها ... ويودّ كذلك أن ينهض ، فيجلس إلى كتبه ساعات ، هي في ضميره الكسب . الكسب الحقيقي لعقله وروحه وقلبه ... ويودّ لو ...

— إنها السابعة والربع ... سوف تصل متأخراً إلى المدرسة.

وانتفض وهو ينظر إلى ساعته . إنها الآن ، زوجته ، ظل لضميره . إنها ضمير ثانٍ له. فاذا أفلت يوماً من رقابته ، انتصبت هي بديلا. وإن هذا ليثير أعصابه أحياناً . لم تحرص الآن على أن تذكره بالمدرسة ؟ إنه لم ينسها ، ولكنه يتناساها لحظات ، دقائق ، يعيشها في غيبوبة كأنها نشوة الخمر ...

ومع ذلك ، فلا مفر : إنه لن يبلغ المدرسة إلا إذا هرول في الطريق ، أو استقل سيارة يدفع كامل أجرتها ، فيغص بدفعه . وتغص معه هي ، زوجته .

وتغص ميزانيته .

هذه التي يؤلفها من راتبه الهزيل في المدرسة ، وراتبه المضحك في الجريدة. هذه التي يبتسم في داخله ، إذ يذكرها ، ابتسامة صفراء . إن خمسة أضعاف هذا المبلغ لا تفي بحاجاته الضرورية في البيت. الضرورية ! لقد أصبحت «بارعة» تضحك كلما ذُكر هذا النعت أمامها. إنه ليذكر عبارتها تلك العميقة الساذجة ، الباسمة الحزينة : « إن الحاجات كلها ضرورية جداً ، بحيث انه لم يبق فيها ما هو ضروري على الاطلاق ! » ولكن ما الحيلة يا بارعة ؟ أنت ترين أني ابذل جهدي كله ، أني لا أدخر دفقة من نشاط أحس به . أجل ، هكذا فليغمر الرضى وجهك يا بارعة .. أجل ، هكذا فلتبتسم شفتاك ، وإن كان في بسمتها ظل من كآبة . إنني بغير هذا ، أوثر أن اركن إلى الاستسلام ، وأعلن العجز ، وأجلس إلى جانبك محطماً ، ذليلاً ، كسيحاً .

وعلى انه أقبل على الزواج بعد رويّة وتدبر ، فانه ما يزال يستشعر الندم ، لا أسفاً على هذه الخطوة ، بل رثاءً لهذه المخلوقة التي كان يود لو يوفّر لها جميع أسباب الرخاء . ولكن ألم ينفق ستة أعوام في ادخار هذا المبلغ اليسير الذي شاء أن يبقيه لشؤون الزواج ؟ وهل كان بوسعه أن يصبر بعد على العزوبة . وقد كاد يجفّ في عروقه معين الاحساس ، وأوشكت لوعة الحرمان أن تقتل في قلبه الحنين البشري ؟ لقد كان يخيل اليه أحياناً أنه يكره هذه المرأة — أية امرأة — التي لا يستطيع أن يبلغها ، ولا أن يركن إليها ، ولا أن يعيش إلى جانبها ، كما ينبغي للرجل ، لأي رجل .

غير أنه لم يكن يقدر ، اذ تزوج الفتاة التي كان يصبو اليها ، أن مسؤولية البيت العائلي ثقيلة إلى هذا الحد ، ثقيلة حتى ليحس منها في صدره رعشة خوف وتهيب . لقد استدان من صديق له غني مبلغاً من المال لن يفيه بأقل من عامين ، ولولا أن ذويه واقرباءه وأصدقاءه أهدوا اليه كثيراً من قطع الأثاث ، إذن..

ولقد أيقن ، آخر الأمر ، أن زواجه ، أن الزواج هنا ، بما يرافقه من ملابسات وظروف ، مغامرة ... مغامرة تدخلها زوجته ، المرأة ، من غير أن يكون في يدها سلاح تكسر به حدة مخاطرها ، لأنها تظل منها على الحياد . لقد كان قصارى بارعة انها تبعد عنه اليأس . وكان كل ما تفعله من أجل ذلك ان تبتسم . وكان هو يجتزئ بالبسمة ، ثم يمضي في طريقه ، ويغرق في عرقه .

وهؤلاء الذين يراهم في الطريق ، ماضين الى عملهم ، ساعين الى رزقهم ، هل يملكون ان يفكروا بغير تأمين رزقهم ؟ هل يأكلون رغيفهم ليفكروا بما بعد ذلك ، ام يفكرون بكل شيء ليأكلوا رغيفهم ؟

وهوذا عام كامل ينقضي على زواجه . وهو منذ اسابيع يحس في ضميره عاطفة تتفتح : يود أن يكون له ابن ، او ابنة . إنه منذ طفولته يحب الأطفال ، ويسعد بمداعبتهم ، ويجد دفء هناءة في ضمهم الى صدره ... فكم تراه سيمتلئ فرحة اذا رزق طفلاً يملأ البيت الصغير فرحة ؟

لقد حدّث بارعة في ذلك غير مرة ، فرأى عينيها تشعان ببريق الحنان ، وحسب ذات مرة ان هذا الإشعاع في عينيها انما هو انعكاس إشعاع في عينيه . ولكنها كانت دقائق حالمة ، وتنقضي . كانت بارعة تذكر هذا العبء المادي الجديد الذي سيزيد في إثقال كاهلها بالنفقات ، منذ أن يولد ، بل قبل أن يولد . كانت تذكر ذلك ، هي ضميره الآخر ، وتذكّره به .

بيد ان هذا لم يمنعها من ان تقول له مرة ، في مثل زفرة ضاق بها صدرها :

— لابد ان يأتي رزقه معه ...

فأطرق برأسه ولم يجب . وذكر اولئك الذين يمضون مسرعين الى عملهم ليحملوا لاولادهم الخبز في المساء ، في آخر المطاف .

ولم تضف بارعة شيئاً ، كأن سكوته قد أقنعها بمجانبة فكرتها .

ولكنه يومذاك ، رأى في عينيها دمعة تلتمع .

●

مسابقة "الآداب" للمسرحية

تقيم مجلة « الآداب » مسابقة للمسرحية تدعو جميع الادباء العرب للمشاركة فيها . ولا يشترط في كتابة هذه المسرحية إلا" ان تعالج موضوعاً قومياً او اجتماعياً يتناول ناحية او اكثر من حياة الأمة العربية . ويستحسن ألا" تزيد المسرحية عن ثماني صفحات من « الآداب » .

وتقبل المسرحيات حتى منتصف تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦ وتنشر المسرحيات الثلاث الفائزة في العدد الممتاز الخاص بـ « المسرح » الذي يصدر في مطلع العام الجديد ١٩٥٧ .

اما الجوائز فهي : ٢٧٥ ليرة لبنانية (او ما يعادلها) للفائز الاول ، و ١٥٠ ليرة لبنانية للفائز الثاني ، و ٧٥ ليرة لبنانية للفائز الثالث .

ويدخل المدرسة مجهداً يكاد يلهث ، فيرى المدير واقفاً عند باب غرفته متصلب القسمات ، فيحييه تحية سريعة يكون الجواب عليها ايماءة من الرأس ونظرة جامدة . متى أستطيع ان اجابه هذه النظرة المستكبرة المتحدّية ؟ لكأن هذا الأحمق يشتري عزتي النفسية بهذا الراتب الذي يقاضيني إياه لألقن تلاميذه ، هؤلاء الذين يتخذهم سلعة للاتجار ....

ويدخل عليهم ، فتنقطع اصواتهم . إنه لم يُخلق لهم . لقد كان بحاجة الى من هم اكبر سناً واوفر وعياً . انهم مغلقون ، وانه لا يستشف من نظراتهم اية مشاركة . وكم كان يود لو يجد فيهم واحداً تنطق عيناه بانه يدرك ، إذن لكان أقل عذاباً في احتمال البقاء بينهم طوال النهار ، لايفارقهم الا ليتناول في البيت غداء سريعاً ، لم يحس يوماً بأنه قد أصاب منه الشبع .

إنه شعور ألم ، هذا الذي يحسه بأنه لايستطيع إلا أن يشفق عليهم ، وأن هذه الشفقة لاتجديه ولا تجديهم . إنه بحاجة الى أصدقاء يثق بهم ، ويثقون به ، رفاق قريبين اليه يلقى عندهم تواصلاً وجدانياً ييسر له ولهم ان يرسموا خطة ، ويستشرفوا هدفاً ويحددوا غاية . هنا يكمن عذابه الأكبر . إنه لن يموت جوعاً وسيظل في وسعه ان يؤمن لزوجته الطعام . وسوف يجد من الوسائل ما يوفّر له التغلب على الضيق والعوز . ولكن هذا الضيق في صدره ، والعوز في روحه ، كيف له ان يتغلب عليهما ؟

إنه ماض عما قليل الى الجريدة ، ليعيش هذه الساعات الست ، في ذلك الجو الذي اصبح الآن ازمة نفسية يتخبط في امواجها .

إنه منذ ثلاث سنوات يحرر قسم انباء السياسة العربية . وهو الآن يعيش السياسة العربية في لحمه ودمه . يعيشها ويموت فيها . يعيشها ليموت فيها . واذ ذاك يشعر بأن الذي يموت فيه انما هو الإنسان العربي .

●

وجلس الى الراديو يستمع الى الأنباء . ثم تناول صحف اليوم يتصفّحها ، ثم راجع برقيات وكالات الأنباء ...

أجل ؛ لست اعرف من انا . ليست هذه هي الحياة التي اريدها ، التي انشدها . إنهم هم الذين يعيشونها لي . الأقدار . الظروف . الأعداء . الزعماء . المحترفون . لكأنها كلها قوى خفية ، ولكأني مشدود اليها شداً ، ولا حيلة لي في دفعها . انني لمشلول الارادة . انني لعاجز . اريد أن أصنع مصيري بيدي ، ولكنهم يوثقونهما لي ، هاتين اليدين .

اريد ان ألاقي اخي هناك ، في كل عاصمة ، في كل قرية ، في كل دسكرة . اريد ان امدّ اليه يدي وأصافحه ، لأشعر بأني استطيع ان احقق امكانياتي اذا اعانني ، وبأنه يستطيع ان يحقق امكانياته اذا اعنته . ولكنهم هم يقيمون الحواجز ، أو يدعمون الحواجز القائمة ، فيصبح حنيني اليه لهفة ، وقد يحول الى تفجع . وانظر الى يدي ، هذه التي تريد ان تمتدّ ، فاذا هي مشلولة .

واستشرف حدود وطني ، وطني الكبير ، فأرى في

صميمها عدواً زرعه الاستعمار ، ولم يبذل قومي مذخور جهودهم لاجتثاثه من ارضي ، فظل منتصباً على حدود بلادي شبحاً اسود يملأني رعباً ، يملأ ايامي القادمة ، وايام اولادي. شبح يتطاول ويتطاول لأنه يتغذى من مخاوفي ومن الرعب الذي يملأني به . شبح يزعق رؤسائي في وجهه زعيقاً ثم يخرسون . شبح يصفعني كل يوم ، فأخاف ان اردّ له الصفعة . وأجترّ ذلي مجبولاً بدمي .

وهناك يناضل اخي . ويموت . فلا امدّ له يدي الا بكأس فارغة ، كأس اخشى ان املأها ، يخشون ان يملأوها ، حتى لايغضب الكبار الذين احالوني قزماً صغيراً . صغيراً حتى لا ارى نفسي . حتى لااعرف من انا . ولا اعرف ماذا اريد . ولا اريد .

وطرق عليه العامل الباب ، يطلب مواد للطبع . خذها . خذها هذه الأنباء . انها كثيرة ، انباء الخداع ، انباء التدليس ، انباء التخدير . انباء العجز والاستسلام . انشرها في الصفحة الأولى ، انشرها على العريض .

وتستقبله بارعة محمرة العينين من النعاس . لقد تأخرت الليلة يا عزيزي . كانت هناك اليوم انباء كثيرة . اود ان آكل لقمة . انني متعب جداً .

وظلت جالسة . ورآها مغمضة العينين . واذ فتحتهما رآهما مغرورقتين . ولم تقل شيئاً. ولكنه يعرف ماذا تريد ان تقول. انك تنهض باكراً ، وتعود في ساعة متأخرة من الليل . وانك فوق ذلك تأتي متعباً ...

وتنهض بارعة فتأتيه ببعض الطعام . ويفاجئها بعد لحظات وهي تنظر اليه بأسى . انها ترثي لي . اجل ، إن زوجتي ترثي لي . حتى زوجتي .

— لا ... ابتسمي يا بارعة ، ابتسمي .

فتبكي بارعة . ويعجز هو عن كبت سورته ، فينفجر . ولا يدري بم ينفجر ، ولا الذي يقول . كل ما يذكره انه جعل يصيح ويصرخ . ولم يصمت الا حين تمثل صورتهم ، هم ، يزعقون في وجه المتربص هناك على الحدود . مثلهم كان يزعق في وجه الحياة .

وظل جالساً الى المائدة حتى هدأ. ولحق بزوجته التي كانت قد امحت لدى فقد أعصابه. والفاها قد غطت وجهها كأنما تريد ان تحجب عنه ذلك الأسى الذي ينطق في عينيها . واقترب يضمها اليه مهدئاً ، معتذراً . سامحيني يا بارعة . لقد كان ذلك اقوى مني . ولم تكن لي حيلة في دفعه . سامحيني ياعزيزتي .

ورفعت بارعة عن وجهها الغطاء ، وجعلت تنظر اليه في حيرة . ورأى على شفتيها اطياف كلمات . فساءلها بعينيه . وقالت بعد تردد :

— اخشى ان يسوءك ما سوف انبئك به ...

فأقبل عليها متلهفاً :

— خيراً يا بارعة ...

قالت وقد أغمضت عينيها من جديد :

— لقد قصدت الطبيب اليوم ، فأكد لي انيسأصبح أمّاً .

ولم تترك له لحظة ليتحقق من اثر النبأ في نفسه ، بل انطلقت تتحدث بسرعة لم يعهدها فيها ، كأنما أنفقت النهار كله لتعدّ كلماتها . قالت له انهما لن يحملا اي همّ من أجل طفلهما ، وانها مصرّة على القول بان رزقه سوف يأتي معه ، وأنه سيملأ البيت فرحة ، وانها ستجد فيه عزاءً من غيبته طوال النهار ، وانها ستربيه تربية صالحة ، وانها ستبدأ منذ الغد في تدبير امر ملبسه ... وانه ....

أجل يا بارعة ، وسوف تكتسب حياتنا معناها المفقود ، سنعرف لماذا نناضل ونعيش قلقنا يا بارعة . إن العجز اليوم يشلّ ايدينا . إن جيلنا هو جيل انتقال. انه الجيل الضحية . فلنعرف ان نجعل من قلقنا وسيلة مجدية للجيل الذي سيخلفنا . اجل يا بارعة ، سنكون لبنة يرفع بها ابناؤنا ركناً من البناء الذي سيشيدونه .

اجل ، يا بارعة ، سنعيش لنمكن لطفلنا ، هذا الذي تجنّه احشاؤك المقدسة ، ان يعيش حياة يصنع فيها مصيره بيديه ، ويخلق مستقبله بنفسه .

— إن الغد هو يوم احد ، فليس لديك مدرسة ولا جريدة ، ولن نغادر البيت غداً . سنجلس لنفكر به ، بـ « نانا » ، اليس كذلك يا عزيزي ؟

— بلى ، يا بارعة .

وانحنى عليها برفق يقبّلها وهو يشعر بأنه يوشك ان يبكي .

سهيل ادريس